

التربية الإسلامية

معاهد التعليم

٣

للمؤلف محمد علي مصطفى

المفتش بالمعارف

أجملنا القول فيما بذله السابقون الأولون من الجهود المشكورة في نشر العلم بين الناس ، وتعليم الأحداث وسواهم القراءة والكتابة ، فعلى أن نتبع هذه الحركة مع بعض التفصيل ، لنعرف أما كتبها ومدادها ، وشيئا عن نظامها في الأقطار المختلفة .

١ - الكتاب

كان اليهود من العرب قد اتخذوا لأبنائهم مدارس يعلمونهم فيها كتابة اللغة العبرية وقراءتها والتوراة ، فلما جاء الإسلام بكتاب منزل ، كان أول ما عني به المسلمون تعليم أبنائهم القراءة والكتابة ، حتى يعرفوا دينهم ، ويقروا كتاب الله ، وأغلب الظن أن بعض المسلمين بعثوا بأولادهم إلى مدارس اليهود ليتعلموا فيها ، فقد ورد أن أنى بن كعب قال في زيد بن ثابت لقد قرأت القرآن ، وزيد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود في

المكتتب . وقال الواقدي « كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج ، وكان تعلم الصبيان بالمدينة في الزمن الأول . وإن كلمة المكتتب أو الكتاب لتردد كثيرا على الألسنة ، مما يدل على أن الكتاب أو المكتتب كان له وجود حتى قبل مجيء الإسلام ، وقد أشرنا من قبل إلى أن رسول الله ﷺ أمر الأسرى من فقراء المشركين أن تكون فديتهم تعليم عشرة من صبيان المدينة ، وليس هناك ما يدعو إلى الشك في أن هؤلاء قد افتدوا أنفسهم بصناعتهم ، وعلّموا أبناء المسلمين ، فإن آخر الحديث يدل على ذلك إذ يقول : ففشت الكتابة بالمدينة ولعل هذه أول الكتاب في الإسلام . وهناك أمر آخر يدلنا على أن الكتاب نشأ مبكرا ، فقد أسلفنا أن سبي قيسارية بلغ نحواً من أربعة آلاف ، استعمل بعضهم في الكتاب ، كما ضبطها مؤرخو الفرنجة (١) ، وورد أيضاً في الإصابة لابن حجر أن جبير بن حيان وكان معاصراً لعمر بن الخطاب كان معلم كتاب بالطائف ، وكذلك كان يوسف الثقفي والد الحجاج وغيره ممن قصصنا عليك أسماءهم من قبل .

كل هذا يدل على أن معاهد تعليم الأطفال نشأت مبكرة ، ثم زاد عددها وانتشرت في الأقاليم الإسلامية بسرعة ، وأزرها الخلفاء والأمراء وأعيان المسلمين بجاههم ومالهم وتقرّبوا إلى الله برعاية أبناء المسلمين فيها ، حكى غياث ابن أبي شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر علينا ونحن غلّة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب ، وعليه عمامة قدأرخاها من خلفه . وروى أن هاشم بن مسرور التميمي القيرواني من علماء القرن الثالث كان يقف بالمكتتب ثم يقول للثوب : أخرج إلى من عندك من الأيتام ، فيشتري لهم الفاكهة ويطعمهم ويدهن رؤوسهم ويقبل بين أعينهم ويقول : ما عسى أن أصنع لكم ، اللهم هذا الجهد مني ، وحكى أن أمراء بني الأغلب كانوا يزورون دور

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية ج ٢

العباد والعلماء والكتاتيب في المواسم ويرزعون الصدقات .
ومن الخلفاء من اتخذها وسيلة لنشر مذاهب دينية معينة، فقد كان المعتصم يقول بخلق القرآن وامتحان الناس فيه ، فكتب إلى البلاد وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك ، وما زالت الكتاتيب ينمو ويتكاثر عددها ، حتى لم يخل منها درب من الدروب أو حي من الأحياء ، وربما تعددت الكتاتيب في الحارة الواحدة مثلما تعددت المساجد في الحارات » ، فقد ذكر ابن حوقل أن عدد الكتاتيب في بليرمو بلغ في القرن الرابع ثلاثمائة ، وكان معلموها موضع الاحترام .
والظاهر أن حركة التعليم في الكتاتيب شملت البنين والبنات ، فقد حكى صاحب البيان والتبيين « أن الوليد بن عبد الملك مر بمعلم صبيان فرأى جارية فقال « ويلك ماهذه الجارية » قال أعلمها القرآن » وأكبر الظن أن ذهاب البنت إلى الكتاب في ذلك العهد كان غير مألوف ، ألسنت تحس ذلك في قول الوليد للمعلم « ويلك ماهذه الجارية » إذ لو كان مألوفاً لما كان لهذا الاستفهام بصيغته معنى .

كانت الكتاتيب إما عامة مستقلة عن المساجد أو تابعة لها ، أو للسبيل أو خاصة في دور الأعيان والأمرء وقصور الخلفاء ، ولا يسمح لنا الوقت بتتبع كل نوع من هذه المعاهد مع شيء من التفصيل ، فأولى لنا أن نتكلم في مناهجها وطرق التعليم فيها

مناهج الكتاتيب أو المدارس الأولية

نشأت التربية متصلة بالمبادئ الدينية، فكان من الطبيعي أن يكون أساس منهجها القرآن الكريم ومعرفة العبادات وطرق إقامة الشعائر الدينية، ولكنها تعدت ذلك إلى تعليم الكتابة والحساب وبعض فنون الأدب ، وشمل المنهج كذلك الرياضة البدنية وبخاصة السباحة وركوب الخيل والوثب على ظهورها روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: « علموا أولادكم العزم والرماية ومروهم

فليثبوا على الخيل وثبوا ورووهم ما يجمل من الشعر « وكان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب ولده « علمهم النوم وهذبهم بقلة النوم » وروى الألبشيهي في كتاب المستطرف قال: حكى الفضل بن يزيد الكوفي — وكان من كبار المحدثين وثقاتهم زمن بني أمية، وكان ينزل بجزيرة الفرات — قال: نزل علينا بنو تغلب وكنت مشغوفا بأخبار العرب، فبينما أنا أدور في بعض أحيانهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خيائها، وهي آخذة بين غلام وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب فاستحسننت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، فدنوت منها وسلمت فقالت: يا حضري ما حاجتك؟ قلت الاستكثار مما سمعت، فأخذت تقص علي من أخبار الغلام حتى قالت: أرضعه حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من فرق المهد إلى فراش أبيه، فربى كأنه شبل أسد، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده؛ فلما بلغ مبلغ الرجال حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوتات الحي الخبلاء، وأخذ في قرى الضيف وإطعام الطعام » .

وأوصى الرشيد خلفاً الأحمر مؤدب ولده الأمين فقال له .
يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته؛ إلى آخر الوصية (٢).
وأوصى عمر بن عتبة معلم ولده فقال له :

(١) باختصار عن نزهة القارىء للأسكندرى .

(٢) وخذه بتنظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وانت مغتم فأنده تفيدده أياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمنع في مساجته فيستجلي الفراغ وبالفقه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة

ليكن أول إصلاحك لو لدى إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك
فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت : علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه
فيتركوه، ولا تتركهم منه فيه جروه، روههم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه
ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة
للفهم، وعلمهم سنن الحكماء، وجنبهم محادثة النساء، ولا تتوكل على عذر مني لك، فقد
اتكلت على كفاية منك .

وجاء في كتاب آثار الأول في ترتيب الدول لمؤلفه الحسن بن عبد الله
ما يأتي قال « يتعين على الملك أن يكون له ولد صالح يخلفه في ملكه ويبقى ذكره
من بعده ولا ينبغي أن تكون رغبة الملك في تكثيرهم بل في تجويدهم، فأول
ما ينبغي له أن ينتخب الأمهات ذوات الأصاله والصباحة والملاحة، والسلامة
في الأعضاء والجواس وجودة الأخلاق وكرائم الطباع، وليختار لذلك زمن
الربيع وفي الأسفار، وعند السرور والنشاط والانبساط، فإذا جاءه الولد أحسن
تسميته واختار له المواضع لتعتدل طباعه وتتكامل هيئته، ثم إذا ترعرع يعلمه
الخط والقراءة ويهذب لسانه على الفصاحة، ويوكل بتربيته من يثق بأمانته
وشفقتة، ثم يعلمه الركوب والفروسية والرمي والطعان وجميع ما يحتاج إليه
أهل العرب » .

وقد تعرض محمد بن سحنون التنوخي القيرواني (٢٠٢ - ٢٥٦ هـ) في
كتابه آداب المعلمين لبيان منهج التعليم الأولى مع كثير من التفصيل المفيد قال:
« وينبغي أن يعلمهم الحساب وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط ذلك
عليه، وكذلك الشعر والغريب والعربية والخط وجميع النحو وهو في ذلك متطوع.
وينبغي له أن يعلمهم إعراب القرآن، وذلك لازم له، والشكل والهجاء
والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل يلزمه ذلك، ولا بأس أن

يعلمهم الشعر مما لا يكون فيه فحش من كلام العرب وأخبارها وليس ذلك بواجب عليه .

فما سقناه إليك من النصيرص تعلم علما يقينيا المواد التي اشتمل عليها منهج التعليم في المرحلة الأولى من مراحلها ، على أن الحال لم تكن واحدة في جميع الأقطار الإسلامية ، فقد تفاوتت المناهج واختلفت تبعاً لاختلاف الأقاليم وقد تعرض ابن خلدون في مقدمته لتعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه فقال :

« اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث . وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات ، وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخاً ، وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبغى عليه .

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس العلم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب فهم لذلك أقوم على رسم القرآن من سواهم .

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم — جعلوه أصلاً في التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية

وحفظها، وتجويد الخط والكتاب، ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم، لكنهم ينقطعون عن ذلك لا نقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم.

وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك.....

وأما أهل المشرق فيخلطون في تعليمهم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري نعم عنايتهم منها، والذي ينقل لنا أن عنايتهم بالقرآن وصحف العلم وقرآنيته في زمن الشيعة، ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد.

ينتقل ابن خلدون بعد هذا إلى المفاضلة بين هذه الطرق المختلفة في الأئمة صغار الإسلامية، ويذكر ما يترتب على اتباع كل طريقة من النتائج، والظاهر أنه يفضل طريقة أهل الأندلس على سواها، لأن أنبا عهم هذه الطريقة أفادهم من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها، فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع، أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا «

محمد علي مصطفى